القومية العربية

بقلم ابراهيم عبد القادر المازني

عثرنا ـ بطريق المصادفة ـ على هذا المقال القيم الذي كتبه المرحوم ابراهيم عبد القادر المازني ونشرته مجلة « الرسالة » المصرية في عددها ١١٢ الصادر في ٢٦ اغسطس (آب) ١٩٣٥ . ونحن نعيد نشره هنا على القراء العرب لما يحتويه من ارهاصات ودلالات عميقة .

كثيرا ما يسألني الشبان الذين لم يشهدوا الثورة المصرية ـ لانهم كانوا أطفالا ـ « هل كانت حقيقة رائعة ؟ »

فأقول : « لقد بلغت غاية الروعة ـ في حدودها .

ولم يكن في الوسع ان تكون فوق ما كانت ، ولكنها فشلت ـ مع الاسف ـ لانا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين » .

ذلك اني أومن بما أسميه « القومية العربية » وأعتقد ان من خطل السياسة وضلال الرأي ان تنفرد كل واحدة من الامم العربية بسعيها غير عابئة بشقيقاتها ، او ناظرة اليها ، ويحنقني ويستفزني ان ارى احدا ينظر الى مصر كأنها من أوروبا وليست من الشرق .

وعندي ان الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا ، وان هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية ـ اذا لم تفقدنا اياها ـ ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب . والعلم ينقل ، وقد نقل من الشرق الى الغرب ، ومن اليسير ان ينقل من الغرب الى الشرق من غير ان يحاول الشرق ان يغير جلده او يخسر خصائصه .

وقد اعترض علي شاب ـ ذات مرة ـ ونحن في حديث كهذا ، فقال : « وما الرأي في القومية ؟ أليست حقيقة تاريخية تفرق بين هذه الشعوب والامم التي تريد ان تجمعها وتربطها برباط واحد ؟ » .

فقلت له : « ان هذه القوميات العنيفة الضيقة الحدود ، حديثة من الوجهة التاريخية ، وهي ـ بحدتها الحاضرة ـ بنت العصر الحديث ، او اذا شئت ، فقل انها وليدة الحرب العظمى ، وان كان صحيحا انها سبقت الحرب بنصف قرن تقريبا ، بل ان فكرة الامبراطورية البريطانية نفسها ليست الا بنت القرن العشرين . ولعل أكبر مسؤول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج .

ما علينا من هذا ، ولنرجع الى حديث الشرق : لقد كانت هناك وحدة وثقافة اسلاميتان دان لهما الشرق ، او ما يعنينا منه ، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة ، ولم يمنعها ان تظل أن ثورات شبت ، وحروبا استعرت ، فان هذه أشبه بالفتن الداخلية . وقد كان العلماء والادباء والفقهاء يرحلون من بلد الى بلد ، ولا يحسون انهم تركوا أوطانهم وتغربوا ، ولا يشعرون انهم اجتازوا حدودا ، ولا تخطوا تخوما ، تفصل بين أقطار ، وتعزل أمة عن أمة . ولا يزال الحال كذلك ، ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم انكم في غير مصر ـ الا من حيث التقدم المادي ـ وكانت اللغة هي اللسان الذي لا يحتاجون الى اتخاذ غيره في حيثما يكونون من هذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم امما وشعوبا وتقولون هذا مصري وذاك فلسطيني او شامي او حجازي . وعلى ان القومية هي اللغة لا سواها . ولتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله ان تكون ، ولتكن الاصول البعيدة المتغلغلة في القدم ما شاءت ، فما دام ان أقواما لهم لغة واحدة فهم شعب واحد . ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يفكر ـ الى الآن على الاقل ـ الا بالالفاظ . وهي وحدها أداة التفكير ، فلا سبيل اليه بدونها ، ومن المستحيل ، الآن ، ان نتمثل معنى مجردا من الفاظ تعينه . ولكل لغة أساليبها وطرائقها ، فأساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للاساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ، ومن هنا يتفق ويتشابه ابناء كل لغة ، ويختلفون عن ابناء كل لغة اخرى ، وهذا فرق ما بين الانكليزي والفرنسي ، وما بين الانكليزي والهندي ، وهذا فيما أظن حقيقة علمية . ومتى كان الامر كذلك فكيف نكون الا عربا كالعراقيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والحجازيين ، واليمانيين ، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد ؟ » .

فعاد الشاب يسألني : « وأصلنا المصري ؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم ؟ »

فقلت له : « أكرم بهذا من أصل ، وانها لمدنية باهرة تلك التي كانت للفراعنة ، وان العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضارة القديمة ـ ولكنها بادت

واندثرت ، ولم يبق منها الا الاثر المدفون في التراب ، والذي لا يمكن ان يؤثر في حياتنا الحاضرة الا من طريق واحد ـ هو اشعارنا العزة وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل ، كما يكون الاب كريما فيخجل الابن ان يكون كزا لئيما وان يفعل ما ينافي كرم آبائه وطيب ارومتهم . ولكن المدنية العربية ـ او قل الاسلامية اذا شئت ـ لم تفن ، ولم تبد ، ولم تندثر ، ولم تفقد الا القوة ومظاهر السلطان وهذه تكتسب وتستفاد ، ولكنها فيما عدا ذلك ، بقيت حية ، وابقى ما بقي منها لغتها بكنوزها المختلفة ، فهي ـ أي المدنية العربية ـ عامل مؤثر بوجوده لا بذكراه كالعامل الفرعوني ، ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التي يقيمها الغرب ويرفع منها سدودا بيننا وبين اخواننا » .

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون ، ولكنهم يرون أنفسهم شبانا ، ويستهولون ان يوكل الى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق ادراكهم ، ولكن أنا أومن بقدرة الشباب على المعجزات لان خياله أنشط ، وجرأته أعظم ، وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات ، وآماله فسيحة . واذا كان الشباب لا يقدم ، فمن ذا عساه يفعل ؟

ولو ان هذه القومية العربية لم تكن الا وهما لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب ان نخلقها خلقا ، فما للامم الصغيرة أمل في حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس مثلا ؟ ماذا يسعهم في دنيا تموج دولها بالخلق ، وكيف يدخل في طوقهم ان يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم ؟ ان أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع ان تثب عليهم وتأكلهم أكلا بلحمهم وعظمهم . ولكن مليون فلسطين اذا أضيف اليها مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلا يصبحون شيئا له بأس يتقى . وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الاكثر ، وجل اعتمادها على حاصلات الارض والصناعة فيها ساذجة محدودة ، وضيقة النطاق ، والزراعة لا تغني الامم كما تغنيها الصناعة ، والمال عصب الحياة وسر القوة ، وأخلق بهذه الاقطار العربية ان تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هي مقسمة موزعة ، لانه لا يوافق الدول الغربية التي لها فيها سلطان او نفوذ ان تدع صناعاتها تنشط وتنهض ، ولا سبيل الى نشاطها الا اذا فتحت اسواق مصر ، لجاراتها الشرقية ، واسواق الجارات لمصر ، ومعقول ان تشتري منا دول أوروبا حاصلاتنا الزراعية او ما يزيد عن حاجتنا منها ، ولكن صناعتنا لا يعقل ان تجد لها أسواقا في اوروبا ، فما بها حاجة الى ما نصنع بالغا ما بلغ التجويد فيه ، وانما يتسع الميدان لصناعتنا اذا وجدت سبيلها الى الشرق ، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية .

قد يقال ولكن هذا ليس الا حلما . فنقول نعم انه الان حلم ، لا اكثر ، ولعله لا يتراءى الا لآحاد يعدون على الاصابع في كل بلد ، وعسى ان تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد ان دار زمنا في نفوسهم ، ولكنه على كونه حلما ، ليس أعز ولا أبعد منالا مما تحلم به أمم اخرى في هذا العصر . وبالامم حاجة الى الاحلام ، والى الالحاح على نفسها بها حتى تخلد اليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة او معنى اذا لم تتسع لتحقيقها ، والا فلأية غاية تسعى ؟ ماذا تطلب من الدنيا ؟ وماذا عسى ان يكون مرامها في الحياة اذا لم تحلم بأمل ؟ أيكون كل ما تبغي ان تأكل هنيئا ، وتشرب مريئا ، وتنام ملء جفونها ؟ وهيهات ان يتيسر لها ذلك اذا هي كفت عن الاحلام والتأميل وما يغريان به من السعي ، وغيرنا يحلم بنا اذا كنا نحن لا نحلم بشيء ، وحقيق بنا اذا سلمنا الى حين ان نعود فريسة لامة من الامم الطامعة الحالمة .

والاحلام ضرورة من ضروريات الحياة ، للافراد والجماعات ، وبغيرها يمتنع السعي وتنقطع الحوافز ، وتركد الدنيا ، ويأسن العيش ، ومن لا حلم له ، لا أمل له ، ولا مستقبل ، فلماذا يعيش اذن ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

بمناسبة اسبوع الكتاب العربي

تقدم

دار صادر ـ دار بيروت

الكتب التالية :

سبعون « الحلقة الثالثة »	**لميخائيل نعيمه**
الشاعر القروي	**لعبد اللطيف شراره**
الرصافي	**لعبد اللطيف شراره**
ابو القاسم الشابي	**لعبد اللطيف شراره**
المحاسن والمساوىء	**للبيهقي**
علم الاقتصاد الحديث	**ترجمة دجاني وعاشور**